القضايا الاجتماعية الكبرى

في الشرق العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

المرأة والرجل

اطلق الغربيون كلمة « سكس » — Sex — على الخصائص التي تميز كلاً من الذكر والانثى في الاعضاء والوظائف والوجهات النفسية ، وهذه كلمة مشتقة من فعل (سكار) اللاتيني غالباً ومعناه « قطع » اشارة الى ان المرأة مقطوعة من ضلع الرجل . وهم يعالجون قضايا الرجل والمرأة تحت عنوانها وقد احسنوا في ذلك لانها تشير الى الجنسين في آن واحد . وخير كلمة تترجم بها الى العربية كلمة « شق » ومعناها في معاجم اللغة « الجانب الواحد من الانسان » ومنها الشقيق بمعنى الاخ كأنهُ شق نسبه أو جسمه من اخيهِ . وذهب بعض الفضلاء الى أن الكلمة الافرنجية مأخوذة من العربية لفظاً ومعنىً . وفي وسعنا ان نفسر « الشق » أو الخصائص التي تميز الذكورة والانوثة من وجهة علم الحياة بقولنا ان التلقيح — وأي اتحاد بيضتي فردين مختلفين ذكر وأنثى — هو عمل كبير الشأن في تخليد معظم الاحياء لا جرم ان يكون قد سلك الطبيعة به هو السبب الذي أدى الى التفريق بين الذكر والانثى والاحتفاظ بميزات كل منهما وفقاً لما تتطلبهُ الحياة من البقاء او الاستمرار . والتلقيح هو الطريقة التي يتم بها التوالد في الحيوانات اجمالاً فتكون اعضاء التناسل اما في حيوان واحد كما هو الحال في بعض الديدان او تكون في حيوانين مختلفين من ذكر وانثى كما هو الحال في معظم الحيوانات العليا ، وطريقة التلقيح هذه تدعى في كتب الحياة « الطريقة الشقية » في حين تتوالد معظم الحيوانات الدنيا كذات الخلية الواحدة بطريقة غير شقية ليس فيها ذكر ولا أنثى بل بمجرد انقسام الحيوان الواحد الى نصفين مثلاً بحيث يصبح كلٌ منهما فرداً مستقلاً

ولم ينل موضوع الشق في البشر حقه من العناية الا في ابحاث المتأخرين لان المتقدمين وجّهوا جل عنايتهم للرجل وجعلوا المرأة ذيلاً له ، وقد تساوى في هذا الاهمال اهل الشرق والغرب معاً وربما كان الشرقيون (على خلاف الشائع) اقرب الى الانصاف ، الا ان هذا الافراط في شأن الرجل اخذ يعقبه تفريط الى درجة بعيدة ، حتى ان بعض علماء الحياة ممن

عالجوا قضية التلقيح الاصطناعي في كثير من الحيوانات قال ان الذكر من الوجهة الفنية يكاد يكون فضلة يجوز الاستغناء عنها . بيد اننا اذا تركنا الطرف جانباً فلم نقع في اهمال المتقدمين ولا حفلنا بوساطة الحيوين المتأخرين ونظرنا الى الذكر والانثى جزئين يتم الواحد منهما الآخر — وهذا هو المعنى المقصود من كلمة الشق — كانت معالجتنا لهذا الموضوع الاجتماعي الخطير متشية مع العلم الصحيح وبعيدة عن الاغراض والانفعالات. وتزداد حاجتنا الى الاسترشاد بنور العلم بسبب ما ابتلينا به من طفرات المتعصبين ممن استسرأوا الحملة على الشرق وعاداته في الزواج فأدخلوا في الاذهان بعض الآراء العتيقة العنيفة التي تحول دون تفهم الحقيقة مع أن هذا الشرق النابه هو أحوج البلدان في نهضته الحاضرة الى بناء اصلاحه على الاسس الثابتة التي لا دخل للاوهام فيها

تعقد الموضوع وصعوبة الحل

ولا ادل على خطإ المتسرعين في وضع القواعد العامة من النظر الى الموقف الحاضر في امر الزواج وبناء الاسرة وتشعب الآراء والتطبيقات فيها. فقد اخذت ورقاً وقلماً وجهزت قوائم متعددة بعضها بأسماء اهلي وأصحابي وجيراني وهم ممن عرفتهم من المسلمين وبعضها الآخر بأمثالهم من المسيحيين واليهود وغيرهم من اهل الاديان الاخرى . ووضعت بجانب كل اسم ما يدل على سعادة زواج صاحبه او شقائه وهل الطلاق يحل الاشكال أو يزيد في الارتباك وغير ذلك من الملاحظات ومنها ما يتعلق بالضر والتسري والمتعة واتخاذ الخلائل على الطريقة الاوربية فلم تكن النتيجة بجانب قائمة من تلك القوائم اجمالاً ، حتى ان الاستشهاد ببعض الامثلة من المبشرين ممن ملأوا الدنيا تشهيراً بوضع الزواج في الشرق لا يغير النتيجة كثيراً

والى القارىء بعض الامثلة التي اخترتها لانني عرفتها بنفسي أو سعيت في اصلاحها :

فقد حدث ان كاتباً في محل تجاري معروف في البرازيل استولى على قلب ابنة صاحب هذا المحل وهي فتاة ادبية سليمة في نحو العشرين من العمر فمازال يستهويها بالزخارف ويستميلها بالتزويق حتى قبلته بعلاً لها فكان الزفاف وكان شهر العسل ثم كانت العودة بالعروس الى الوطن ومعها البائنة التي تزوج بها من اجلها فما صار في بلده وبين اهله قلب لها ظهر المجن وحول الزخارف الى مكاره والتزويق الى منغصات مما انتهى بفرار العروس الى خارج القطر السوري وهي من زينتها وحليها بمجلدها فقط وها هي اليوم تحرق الارض على ما فرط منها وتطلب الخلاص ولا خلاص

اما الحوادث التي تكون فيها المرأة هي المزخرفة والمزوقة على عكس المثال المتقدم الى ان يتم العرس وينتهي شهر العسل قبل ان تكشر عن نابها فاكثر من ان تحصى. واحصاء سطحي

في الحيّ وبين الاهل والعشيرة فيه المقنع الكافي. ولاشك في ان مثل هذا الزواج المتنافر حمل طائفة كبيرة من الدول المسيحية حتى العريقة في البروتستنتية منها كالدولة الاميركية على اباحة الطلاق والخروج عن قاعدة « فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان »

اما المثال الآتي فيتطلب خطة غير الخطة المتقدمة . فقد حدث ان سيدة تزوّجت برجل طاعن في السن فأقام معها على اتم وفاق عشرين سنة كاملة كانت له في خلالها حارساً اميناً وقريناً صادقاً الى ان اقعدته الشيخوخة واضعفت مداركه الايام فطمع اهله في اقصائها عنه ليستقلوا بثروته دونها فما كان من بناته من زوجته السابقة واولادهن الاّ ان تألبوا عليه فعقدوا حوله مجلساً مصطنعاً من موظفين شرعيين وعلى رأسهم مفتي الديار الشامية وهنالك بشيء من الاستفزاز والاغواء حملوه على طلاقها ، فلا الزوج المقعد المسكين كان راضياً بهذا الفراق وهو في شيخوخته ولا الزوجة التي كانت في زيارة اهلها حيث فوجئت في مساء العيد بهذا النبأ المجرم . وغني عن البيان انه لولا سهولة الطلاق ما حدثت مثل هذا النعل المنكر

واعرف رجلاً من بيت مشهور في مدينة سورية كبيرة وهو الآن في نحو العقد السادس من العمر قد تزوج باكثر من خمسين امرأة ثيبات وابكاراً فكانت عادته ان يبث العيون والارصاد لاستكشاف زوجة من البيوت المتوسطة او الفقيرة ليصرف معها ردحاً من الزمن فاذا قضى منها لبانته طلقها وتقدها متأخرها بعد ما تقدها الصداق المقدم المتفق عليه. وقد قصّ عليّ كيف كان يحصل على التقارير التي تهمه في هذا الشأن فانهُ كان يستأجر نساء اخصائيات في فحص الابدان كما يفحص القصّاب الغنم السمينة فينتشرن في الاحياء ويدخلن البيوت خاطبات حتى اذا رأين من اعجبتهن بهيئتها وطولها وعرضها قمن اليها فكشفن عن عنقها وصدرها وساقها الى الخمص قدمها ثم رفعن اليه التقرير عنها شفهيًّا فاذا صادفت هذه الصورة هوى من نفسه عقد وبنى ثم طلق ليعقد من جديد من غير توان كأنه آلة ميكانيكية

ومما هو جدير بالالتفات ان تلك المدينة وقد اشتهرت عناية كبيرة بالشؤون الدينية واقامت الارض واقعدتها لكل حادثة لم تطمئن اليها نفسها لم نسمع لها صوتاً واحداً بالاحتجاج على هذا الانحراف مما يدل على ان القيمين بالشؤون الشرعية في تلك الاصقاع لم يجدوا شيئاً من الشذوذ في عمل هذا الرجل المطلاق «المزواج» الذي سخّر بنات الناس لارادته واستثمر ماله فيهن بربًا فاحش جدًّا

ان مثل هذه الحوادث التي تتكرر بين سمعنا وبصرنا كل يوم تتطلب من المصلح الاجتماعي ان يعالج هذا الموضوع الخطير بالروح العلمية النزيهة خصوصاً من بعد ما انتشرت الآراء الشيوعية المتطرفة واصبحت بعض البلدان كبلدان الاتحاد السوفيتي الروسية شبيهة بالاباحية لولا بقية عادات دينية وتقاليد متوارثة لا تزال تجاهد جهاد الجبابرة في الدفاع عن الاسرة المهدّدة

الروابط الاجتماعية الاولى في الاعصر الخالية

نريد بالاعصر الخالية تلك الايام السحيقة التي سبقت عصر التاريخ اذ كان الانسان على حالة من الهمجية هي اقرب الى حالة القردة منها الى حالة البشر . وقد اختلفت انظار الباحثين على البواعث التي ادّت بالافراد الى اجتماعهم خُصَّصاً كطوائف القردة تجوب الغابات وكيف تحولت هذه العصب بالتدريج حتى صارت جماهير منظمة . ولكن هناك شبه اتفاق على ان من اوائل هذه البواعث واهمها الباعث الشقي الطبيعي بين الذكر والانثى ولذة المصاحبة الناشئة عنهُ ثم مايحدث بسبب الاقتران فالحمل فالولادة من التآلف بين الام واولادها وما يتخلل ذلك من حنان وعطف وتعاون . لا جرم ان تكون الاسر « العائلية » والحالة هذه سبب الاجتماع الابتدائي الذي تحول فصار اجتماعاً عشيرياً — نسبة الى عترة الرجل وهي ولد الرجل وذريته — ثم قبلياً وانتهى بشكله المدني الحاضر وحمل كثيراً من الكتاب المتقدمين امثال ابن خلدون على القول ان الانسان مدني بالطبع

الاسرة الاولى باعتبارها وحدة اجتماعية

مهما تغير التنظيم الاجتماعي وتبدل بناؤه فالاسرة لا تزال وحدة ثابتة حتى في البلاد المهددة بالبلشفة ، وهي اصغر انضمام اجتماعي وافواه وقد بقيت الى اجل قريب مصدر الثروة في المجتمع واداة توزيعها واستهلاكها . ونحن في الاسرة كما قال « الموجز في علم الاجتماع » نتعلم ابلغ الدروس الاجتماعية العملية فنمارس فيها حقوقنا الشخصية وننشأ على قاعدة التملك التي تحاربها الاشتراكية المتطرفة ونتعلم كبح جماح النفس وحسن السلوك والانقياد والخدمة والمعروف والواجبات المتبادلة . وفي الاسرة نرى بوادر الدين والاخلاق والتهذيب وكل منا مطبوع بطابعها الدائم

ولئن كان من المستحيل تعيين شكل الاسرة الاولى بالنص وذلك لان التنظيم «العائلي» امر سابق للتاريخ فليس من المستحيل الوصول الى هذا الشكل بالظن والتخمين والقياس . وعلينا بادىء ذي بدء ان نذكر في تعليل وظيفة الاسرة الاساس الآتي دائماً وهو ان تعاون الوالدين على تربية الاولاد أمرٌ ذو قيمة حيوية كبرى في بقاء الجنس . وهذا وحده كاف من الوجهة الطبيعية للاحتفاظ بهذا التعاون وعض النواجذ عليهِ لان الطبيعة حريصة على كل ما من شأنهِ بقاء الاحياء

اماطة اللثام عن الاسرة الاولى

يرجع الفضل الاكبر الى مباحث العلاّمة (جي . جي أتكنسن) في اماطة اللثام عن حالة

الاسرة الاولى وذلك فيما كتبه بعنوان «الاصول الاجتماعية والسنّة الاولى»[1] وتعدُّ آراؤه في المقام الاول وان دخل عليها شيء من التعديل لم يغيّر جوهرها

وقد بدأ (اتكنسن) اساس نظريته بما هو معروف في المجتمع الانساني عامة من تحريم الزواج بين المحارم كالاخ والاخت اولاً ثم بما هو منتشر من عادة خطف النساء ثانياً وهي عادة لا تزال آثارها ماثلة في كثير من المجتمعات البشرية . فقال ان العصبة الاجتماعية الاولى كانت شبيهةً بالسرب الاجتماعي عند القردة في الوقت الحاضر — يعني ان تلك العصبة كانت كناية عن عترة يقودها ذكر كبير . وكان هذا القائد يطارد جميع الذكور ممن يبلغون سن الادراك في العترة لما يشعر به من مزاحمتهم له ولكنهُ كان يحتفظ بمعظم الاناث ويستولدهن . ولا يمنع هذا الحال اثنين او ثلاثة ممن طردوا ان يجوبوا الاصقاع متحدين بل ان يصيدوا امرأة قد شردت من عترتها . ومثل هذه الشرذمة المطرودة التي لا قائد لها كثيرة الوقوع في اصناف القردة ولكنها نادرة في العترة البشرية. وتكون الغيرة الملتهبة في الذكر على اناثه والمكان الذي يعيش فيهِ سبباً كفيلاً بتثبيت الشكل الذي تبنى عليهِ هذه العصبة الاجتماعية الابتدائية وان شئت هذه الاسرة الاولى وباعادة تنظيمها كلما طرأ عليها خلل ، وهذا النوع من التجمع والانضمام عمل يصلح للمعيشة في الغابات حيث الطعام مبعثر ولا يكفي غير القليل من الافراد. ولاعجب ان يستمر هذا النوع من الانضمام الاجتماعي الشكلَ النموذجي لقردة الغابات وان انتظم البغام وهو الشمبانزي في بعض الاحيان بشكل اجواق اوسع من ذلك

ولما كان الانسان الاول في تركيبه اقل صلاحاً للمعيشة في الغابات واكثر ميلاً للاطعمة اللحمية واكثر تكيفاً للمعيشة في الاصقاع الصخرية التي تنبت فيها الحشائش والاعشاب وحيث تكون الفواكه والجذور اقل من القريسة تصطادها الجماعة بالتعاون فهو يستفيد من كل تكيف عقلي او مزاجي يأخذ للاسر الاولى بالنمو والانضمام بشكل وحدات اجتماعية اكبر . وقد صار هذا التكيف ممكناً بسبب التفاعل المتولد من بعض الميول الطبيعية الموجودة بين النساء والاحداث من الذكور

وقصارى القول ان الامهات مثل معظم ذوات الثدي تميل الى حضانة الذكر من نسلها ومراعاته كما تميل الى حضانة الانثى ومراعاتها . الاّ ان الذكر البالغ يكون في فصل الولادة — وجميع فصول السنة هي فصول الولادة في الحيوانات الصدور — قليل التسامح مع من يزاحمهُ من الذكور وميّالاً الى الشدة. ولكي يحفظ الامهات ابناءهن عندهن فهن مضطرات الى ادخال الرهبة في قلب الصغير منهم من الكبير خصوصاً من الشيخ الزعيم في العترة والى تحذير هذا الصغير من التجاوز عن حقوقهِ واثارة الغيرة في نفسهِ، وبالامثلة الحسية والاوامر والنواهي

(١) Social-Origins & Primal Law.

الابتدائية اتخذت الرهبة الطبيعية في قلب الصغير من قوة والده والخوف من غضبه شكلا محدداً واتجاهاً معيناً فقد نشأ الصغار على اعتبار ما يمتلكه هذا الشيخ ولاسيما النساء في العترة من المحرمات عليهم وانهم لا يجوز لهم مباشرة بعض الاعمال في حضرته او بالقرب منه . وكان الخوف من الشيخ الكبير «رأس الحكمة» . واستمرت هذه الميول الصبيانية الطبيعية في كثير منهم الى سن المراهقة وما بعده فكان الاحداث من الرجال يذعنون للشيوخ وهكذا تعلم الرجال مبادئ كبح جماح النفس وتولدت في المجتمع الخالي فكرة الخطايا ولاسيما خطيئة التزوج بالمحارم . ومن هنا نشأت تلك المشاعر المخنوقة والمستورة بالضغط التي اتخذها علماء النفس اخيراً بارشاد البحاثة النمسوي (سيجموند فرويد) اساساً لنظرية التحليل النفسي (١)

وخلاصتها ان الامراض العصبية المبنية على الخلل في الوظيفة تنشأ عن صدمة شقية في الجهاز التناسلي في غضون الطفولة، ويستطيع الاخصائي بواسطة ما كشفته هذه النظرية من الحقائق ان يحلل البواعث الخفية والمشاعر المخنوقة التي تسير الناس وتتحكم في مجموعهم العصبية من غير ان يشعروا بها وهذا هو «الوعي المستتر» او «العقل الباطن»

والمجتمع مدين في وجوده الى هذا الكبح لجماح النفس الذي ذكرنا منشأه ومن المتعذر ان نرى امكان حدوثه بطريق آخر. ونحن لا نعرف حيواناً من الحيوانات يبدي اقل تردد او اعتراض على الاقتران بالمحارم. واما كون هذا الاعتراض عملاً تقليدياً متوارثاً لا عملاً غريزياً فظاهر كما قال اصحاب كتاب «علم الحياة» (٢) الذين اعتمدنا عليهم في نقل هذه الخلاصة من سجلات اية محكمة جنائية في الارياف . وثمت بعض الاجتماعيين المشهورين أمثال الدكتور (هوبهوس) ممن يخالفون هذا الرأي ويذهبون الى ان الامتناع عن المحارم هو امتناع غريزي ولكن جميع الدلائل المستقاة من الحقائق الثابتة تدل على ان العادة الموضوعة هي السبب المانع من هذا الاتصال

وهنا نبلغ الخطوة الثانية من تاريخ الاوضاع الانسانية الاساسية . فالشاب وقد تمت قوته ونشطت رغبته يرود حدود المنطقة التي تعيش فيها اسرته أو عترته وهو متمثل ساخط فيرى ان هنالك نساء اخرى في العالم غير نساء الشيخ الزعيم وهن لا يناهن التحريم المذكور فيجري في اثر واحدة منهن ويدركها كلما سنحت له الفرصة

ولنا ان نقول عن هذه المرأة انها لو كانت شاردة أو فضلة زائدة في سرب «عائلي» آخر او كانت امرأة في عترة زعيمها ذبح أو اقعده المرض لكان خروجها ايضاً من باب البحث عن الشاب الشارد . ثم اذا فرضنا ان من عادة الشيوخ المتقدمين في السن ان يفتكوا

(١) Freud's Theory of Psychoanalysis.

(٢) The Science of Life, p. 948.

بالاحداث من الذكور لازدادت ارجحية هذه الفضلة الزائدة من النساء . وقد لاحظ (ولو) واخوانه ان (اتكنسن) كتب هذه الآراء الاستنتاجية منذ نحو ربع قرن فلا غرو انهُ مثّل الذكر في حالة الهجوم القاهر على المرأة الشاردة دائماً والعمل على اختطافها لان ستاراً من الحياء كان يومئذ مسدولاً عند الكتاب على رغائب المرأة الغريزية ومشروعاتها الطبيعية. لذلك قد لا تكون ثمة حاجة الى الهجوم اذ يأتي الشاب بالمرأة الغريبة الى بيته في العشيرة أو في اطرافها أو ربما جاءت هي معه امرأةً له باختيارها من غير ارغام . وقد تضله في بعض الاحيان الطريق فلا تزال تلهيه حتى توصله الى منازل اهلها — الى حي الرجل الشيخ الذي كانت في حوزته . فلو كانت هي الغريبة وقد قدمت معه الى اهله فمن الطبيعي ان تعلق عليه املها وتجعله معتمدها فتكون والحالة هذه قد اختارته برضائها فلا تسلم نفسها للشيخ الزعيم. اما النساء الاخرى في العترة فلا يردنها ضرّةً لهن ولا مزاحمة بل يلتزمن جانب الشاب في مقاومة كل تدخل من قبل هذا الشيخ في شأن هذا الكسب اللطيف الذي انضم الى العشيرة. وكنّ حريصات على اقامة حدّ من التحريم بينها وبينهُ . اما اذا انتقل الشاب الى اهل الشاردة فاقامة حدود من التحريم مقابلة لهذه الحدود تصبح ضرورية

***

هذه خلاصة النظرية التي قال بها (اتكنسن) عن الزواج الخالي وهي نتيجة تفكير عميق من جهة وتطابق للوقائع في الحيوانات العليا وللعادات الانسانية المتعلقة بالمحارم من جهة أخرى . وهي عادات لا توجد نظرية تفسرها خير من هذه النظرية . وفي وسعنا ان نتصور تكرار هذا الشكل من الزواج كما قال اصحاب « علم الحياة » ملايين ملايين المرات في غضون عشرات الالوف من السنين الى ان استقرت عادة « الزواج الخارجي » (exogamy) على مهل وتولدت معها فكرة المحارم في الزواج بين الحماة وصهرها وبين الكنة وحميها — وهذا التحريم فذ في علم الحياة خاص بالانسان وعام في مجتمعه لان سائر الحيوانات تتزاوج من غير ان تقيم حداً من حدود المحارم

لكن هذا الاطلاق عن منع زواج المحرم يحتاج الى شيء من الايضاح لان الناس في القرون الاولى لم يكونوا يأنفون من التزوج بالمحارم من الاقارب اللجّ كما تأنف نحن وخصوصاً ملوكهم فاننا نرى في تاريخ البطالسة في مصر مثلاً ان الواحد منهم كان يتزوج اخته وفي تاريخ الفراعنة ان رعمسيس الثاني فعل ما فعله قورش ملك الفرس فتزوج اثنتين من بناته واما ساماتيخوس الاول فتزوج ابنة واحدة فقط وذكر (وسترمارك)[1] عن بعض السياح ان ملوك

(١) The History of Human Marriage, Vol. II. p. 5

(الانكا) في بلاد (البيرو) في اميركا الجنوبية استنوا سنة واجبة الاتباع وهي ان ولي العهد في المملكة مرغم على التزوج بشقيقته الكبرى . والظاهر ان هذا العمل كان خاصًّا بالملوك . وجاء في التوراة ان ابرهيم تزوج ساره اخته لابيه [1] وفي الاصحاح الثالث عشر من صموئيل الثاني ان (أمنون) راود اخته (تامار) عن نفسها فقالت له « لا يا اخي لا تذلني » ومما يدل على ان الملوك كانوا يبيحون هذا الطلب قولها فيما بعد « والآن كلم الملك لانهُ لا يمنعني منك »

وذكر (مالو) في كتابه « آثار جزيرة هاواي » في المحيط الهادي ان خير خليلة لاكبر امير هي اخته الشقيقة . وكان مثل هذا الزواج يدعى (بيو) اي قوساً للدلالة على الانحناء والتقاء الطرفين فاذا ما اثمر ثمرة من الابناء الصالحين دعي الولد « نيناوبيو » اي اميراً من الطبقة الاولى ويبلغ من التقديس ان كل من دخل عليهِ سجد له تعظيماً واجلالاً

وأباحت الشريعة لليهودي ان يتزوج ابنة اخته وابنة اخيه ولكنها لم تبح لنعمة ان تتزوج ابن اخيها ولا للخالة ابن اختها على ان الشريعة في جرمانيا وفي ولاية نيويورك اباحتهما كليهما . وفيما عدا زواج الخال بابنة اخته والعم بابنة اخيه عند اليهود (وهم يتشاءمون منهُ في الشرق) ومسألة الرضاع عند المسلمين فالاختلاف بينهما بسيط . وهذا نص المحارم في الاسلام: « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف انه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلا . حرّمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم التي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيما [2] »

ويدل القسم الاول من هذا النص على تلك العادة المنكرة التي كانت منتشرة في الجاهلية من اباحة تزوج الرجل بامرأة ابيه لانها حسبت من جملة مخلفاته الى ان ابطلها الاسلام ودعاها بحق فحشاً ومقتاً . ومن اغرب ما ذكر عن الخلائل وزواجهن قول (وسترمارك) عن الفلاحين الروسيين ان الوالد منهم وهو حريص جدًّا على تزويج ابنه صغيراً كي يستعين بامرأة اخرى تساعده في زراعته يضطجع معها اي مع الكنة الى ان يبلغ ابنه وهو زوجها الشرعي سن الرشد ، وان هذا النوع من الزواج المشترك الى حين بين الوالد وولده لا يزال معمولاً بهِ في سيبيريا [3]

(١) الاصحاح العشرون من سفر التكوين في التوراة
(٢) سورة النساء الآية الثانية والعشرون
(٣) The History of Human Marriage Vol. III. p. 131

ذكرنا المحارم في الاسلام وهي بالاجمال محارم العرب في الجاهلية إلاّ مسألة امرأة الاب التي اشار اليها الكتاب العزيز، ولا حاجة بنا بعد الاختبارات المستقاة من علم الحياة الى القول ان الاقتصار في الزواج على الحلقات الاهلية القريبة يؤول بالنسل الى الانحلال وهذا هو تعليل قضية المحارم من الوجهة الحيوية اجمالاً قبل هذه الاختبارات القيمة عرفها الزراع ايضاً اذ لاحظوا الاضرار البليغة التي تصيب بيادرهم من الاقتصار في انتخاب التقاوي على المحصولات للوضعية

***

هذه هي خلاصة الرأي الشائع عند علماء الحياة والاجتماع في أصل الاسرة الاولى ونظرتهم في المحارم وخلف النساء فاذا ما تذكرناها ونزعنا من انفسنا الاوهام العالقة بها عن الزواج في سن الصغر ومن روايات العجائز وعنعنات المقلدين وخصوصاً بعض الغربيين الذين جعلوا دأبهم الطعن في الشرق وأوضاعه كان في طاقتنا ان نعالج في المقال الآتي الطلاق والزواج وحرمة الاسرة والدواعي التي تهدد روابطها بالانحلال وغير ذلك بالروح العلمية اللائقة

***

على ان تسرب الاخبار الكاذبة بواسطة السياح المصدقين والملفقين إلى أوربا لم يخل من تأثير قبيح الطبع حتى في ابعد العلماء عن التعصب الديني كما حدث لروذلف بايندر مثلاً وهو أستاذ الاجتماع في أكبر معهد علمي في نيويورك فقد ذكر في كتابه «القضايا الاجتماعية الكبرى» ان العرب والبربر في شمال افريقيا «يقرون الضيف بتقديمهم نساءهم وبناتهم للاضطجاع معه وان من عادة (عرب الحسنية) ان يزوجوا المرأة من ضيفهم لمدة اربعة أيام في الاسبوع وان يتركوا لها الحبل على الغارب في الايام الثلاثة الباقية» Major Social Problems, p. 48. ولا يجوز لمثل هذه السخافات ان تبقى في كتب العلم والتحقيق في امرها لا يحتاج الى اكثر من زيارة لمغارب البدو على بعد كيلومترات من حواضر الشام والعراق يزورها الكاتب فيرى بعينيه قيمة الميرض في نظر العرب والفرق في ذلك بينهم وبين الافرنج